ميزان الجرح والتعديل (*)

٢

(درء وهم واشتباه)

يقول بعضهم : ان مسلما روى عن ابن عباس انه قال في نجدة الحروري: لولا ان أرده عن نتن يقع فيه ما كتبت اليه ولا نعمة عين : قال النووي: كان ابن عباس يكرهه لبدعته وهي كونه من الخوارج

والجواب انه لا يلزم من كراهة الفرد كراهة المجموع ، والا لما خرج لثقاتهم وعلمائهم الشيخان وغيرهما، وهل يؤخذ الجمع بجريرة الفرد؟ على ان نجدة ليس من رجال الرواية عند المحدثين ، فقد ضعفه الذهبي في ميزان الاعتدال وقال عنه : ذكر في الضعفاء للجوزجاني ، على ان الحال وصل اليه في قومه أن يختلفوا عليه وينبزوه بالكفر كما تراه في كتاب الفرق للامام أبي منصور البغدادي ، والملل والنحل للشهرستاني وغيرهما، فلا نعمة عين له - كما قال ابن عباس - ولو كان يكره كل خارجي لبدعته لما أخرج لاثباتهم أئمة السنة في الصحاح والمسانيد ، ويكفي ان الامام مالكا رضي الله عنه عد ممن يرى رأيهم كما رواه الإمام المبرد في كامله (١) ومن عزا لك ما يأثره ، وأراك مصدره ، فقد أوقفك من المسالك على الصراط المستقيم

ومن الغريب أن يستدل بعضهم على معاداة المبدعين بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بهجر الثلاثة الذين خلفوا ، ورفض تكليمهم حتى

(*) لعالم الشام الشيخ جمال الدين القاسمي

(١) جزء ٢

تيب عليهم ، مع انه لا تناسب بين دليله والدعوى بوجه ما . لأن البحث في الرواة المجتهدين الثقات المتقين الذين مانبذ السلف مرويهم لرأي رأوه ، أو مذهب اتبعوه ؛ فهل كان المخلفون كذلك ؟ وما المناسبة بين قوم هجروهم النبي صلى الله عليه وسلم لذنب سبق اعترفوا به حتى تيب عليهم — وقوم لا يرون ماهم عليه الا طاعة وعقداً صحيحاً يدان الله به ، وتنال النجاة والرقي بسببه ، فالانصاف يا اولي الالباب الانصاف ، وحذار من البغي وراء التعصب والاعتساف .

غريب امر المتعصبين ، والغلاة الجافين ، تراهم سراعا الى التكفير والتضليل ، والتفسيق والتبديع ، وان كان عند التحقيق لا اثر لشيء من ذلك الا ماوعا اليه الحسد ، او حمل عليه الجمود وضعف العلم ، وجهل مشرب البخاري ومسلم ، واصحاب المسانيد والسنن هداة الأمة ، ولا قوة الا بالله

(ثمرة الرفق بالمخالفين)

قال بعض علماء الاجتماع : يختلف فكر عن آخر باختلاف المنشإ والمادة والميل والغاية . وهذا الاختلاف طبيعي في الناس ، وما كانوا قط متفقين في مسائل الدين والدنيا ، ومن عادة صاحب كل فكر ان يحب تكثير سواد القائلين بفكره ، ويعتقد انه يعمل صالحا ، ويسدي معروفا ، وينقذ من جهالة ، ويزع عن ضلالة ، ومن العدل ان لا يكون الاختلاف داعياً للتنافر ما دام صاحب الفكر يعتقد ما يدعو اليه ، ولو كان على خطأ في غيره ، لان الاعتقاد في شيء اثر الاخلاص ، والمخلص في فكر ما اذا اخلص فيه يناقش بالحسنى ، ليتغلب عليه بالبرهان ، لا بالطعن

واغلاظ القول وهجر الكلام ، وما ضر صاحب الفكر لو رفق بمن لا يوافقه على فكره ربما يهتدي الى ما يراه صوابا ، ويراه غيره خطأ ، او يقرب منه ، وفي ذلك من امتثال الأوامر الربانية ، والفوائد الاجتماعية ، ما لا يحصى . فان اهل الوطن الواحد لا يحيون حياة طيبة الا اذا قل تعاديهم ، واتفقت على الخير كلمتهم ، وتناصفوا وتعاطفوا ، فكيف تريد مني ان اكون شريكك ، ولا تعاملني معاملة الكفؤ على قدم المساواة

دع مخالفك — ان كنت تحب الحق — يصرح بما يعتقد ، فاما ان يقنعك ، واما ان تقنعه ، ولا تعامله بالقسر ، فما قط انتشر فكر بالعنف ، او تفاهم قوم بالطيش والرعونة . من خرج في معاملة مخالفه عن حد التي هي أحسن ، يخرجه فيخرجه عن الأدب ويحوجه اليه — لان ذلك من طبع البشر مهما تثقفت أخلاقهم ، وعلت في الآداب مراتبهم . وبعد فان اختلاف الآراء من سنن هذا الكون ، وهو من أهم العوامل في رقي البشر ، والأدب معمن يقول فكره باللطف قاعدة لا يجب التخلف عنها في كل مجتمع . والتعادي على المنازع الدينية وغيرها من شأن الجاهلين لا العالمين ، والمهوسين لا المعتدلين اه مع تلخيص وزيادة ،

ولا يخفى ان الاصل في هذا الباب قوله تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن » وقوله سبحانه « وقولوا للناس حسنا » وقوله جل ذكره : (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) ولا تنس ما أسلفنا عن السلف في تفسيرها .

(حملة الاعلام المحققين على المتفقهة المكفرين)

لما استفحل الرمي بالتكفير والتضليل لخيار العلماء في منتصف قرون الألف الاولى من الهجرة ضجت عقلاء الفقهاء ، وصوبت سهام الردود في وجوه زاعمي ذلك ، حتى قالت الحنفية (عليهم الرحمة) مامعناه : لو أمكن ان يكفر المرء في أمر من تسعة وتسعين وجها ، ومن وجه واحد لا يكفر يرجح عدم التكفير على التكفير لخطره في الدين

ولما يشتد الرمي بالتكفير والارهاق لاجله ، والارجاف به ، في عصر من العصور مثل القرن الثامن للهجرة . ومن سبر تاريخ الحافظ ابن حجر المسمى (بالدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) أخذه من ذلك المقيم المقعد ، اذ يرى ان العالم الجليل الذي هو زينة عصره ، وتاج دهره ، كان لا يأمن على نفسه من الافتاء عليه . والسعاية به ، فيما يكفره ويحل دمه ، حتى صار يخشى على نفسه من أخذت منه السن ، واقعده الهرم ، وأفلجته الشيخوخة ، ولا من راهم أو منصف — كما نقرأ ذلك في ترجمة علاء الدين العطار تلميذ الامام النووي ، وانه مع زمانته ، وكونه صار حابس بيته ، يتأبط دائما وثيقة أحد القضاة بصحة ايمانه وبراءته من كل ما يكفره ، ولقد اريقت دماء محرمة ، وعذبت أبرياء بالسجون والنفي والاهانات باسم الدين . وروعت شيوخ وشبان أعواما وسنين ، حتى عج لسان حالها وقالها بانه الى فاطر الارض والسموات ، بكشف هذه الغمم والظلمات ، ولم يزل سبحانه يتلى لها ويستدرجها في غيها ، ولم تحسب للايام ماخبأ لها في طيها . الى أن امتلأ اناؤها ، وحان حصدها وافناؤها ، فأخذها الله

وهي ظالمة جائرة ، ودارت على دولتها الدائرة ، ومحق الله بفضله تلك الدولة المجنونة الجاهلة ، وأورثها للدولة الصالحة العاقلة ، فأمنت الناس على انفسها ودمائها ، وذهبت عصبة الجمود بزبدها وغثائها ،

سيقول بعض الناس ممن تغره القشور ، ولم تقف مداركه على لباب روح العصور : ان تلك الدماء المراقة ، والارواح المهدرة ، لم يحكم عليها الا بالبينة والشهود ، التي يمثلها اتقام الحدود ، وهل بعد ذلك من ملام أو جحود ؟ يقول ويجهل أو يتجاهل ان التعصب يحمل على الاخذ بالظنة ، أو الايقاع بالشبهة ، وان المتطوعة بالشهادة قد يحملهم على اختلاقها ظن الاجر بنصرة الدين ، بقتل هؤلاء المساكين ، لاسيما اذا دفعوا بتشويق المتصوفين والمتمفقرين [1] ، والحشوية البكائين ، احتيالا وقنصا للمغفلين ، ولقد استفيض عن كثير من هؤلاء الضالين المضلين ، الاغراء بقتل الداعين الى الكتاب والسنة والمجاهدين في الاصلاح العاملين ، على ان قاعدة المحققين هي عدم البت في أمر تاريخي الا بعد تعرفه من اطرافه ، ومراجعة عدة اسفار للوقوف على كنهه وحقيقته ، والاشراف على غثه وسمينه ، ووزنه بميزان العقول السليمة ، والقواعد الاجتماعية المعقولة ـ كما أشار اليه الامام ابن خلدون في مقدمته

نحن لم نصم أعمال أولئك بالظلم والجور والبغي الا لما فضح نبذاً منها الامام زين الدين ابن الوردي الشهير صاحب البهجة ، واللامية ، والديوان ، والمقامات ، فقد شفى بالحقيقة الأوام ، وأوضح عن مكر أولئك بالتمويه والايهام ، في مقالة بديعة أنشأها في القاضي الرباحي المالكي [2] سماها (الحرقة

(١) المتمفقر كالمتمسكن مدعي الفقر اي التصوف وليس من أهله (٢) راجعها في ص ١٩٠ من المجموعة الادبية التي طبعت في مطبعة الجوائب عام ١٣٠٠ ، مشتملة على لامية العرب وشرحها وشرح المقصورة الدريدية ، وديوان ابن الوردي ، وديوان الخطاب ورسائله

للخرقة) ولا بأس بنقل جمل منها تأييداً لما قلناه ، قال رضي الله عنه :

« أما بعد حمد الله الذي لا يحمد على المكاره سواه ، والصلاة والسلام على نبيه محمد الذي خاف مقام ربه وعصم من اتباع هواه ، وعلى آله وصحبه الذين بذل كل منهم في صون الامة قواه ، وسلمت صدورهم من فساد النيات وانما لكل امرئ ما نواه ، فان نصيحة أولي الامر تلزم ، والتنبيه على مصالح العباد قبل حلول الفساد أحزم ، والمتكلم لله تعالى مأجور ، والظالم ممقوت مهجور ، وتحسين الكلام لدفع الضرر عن الاسلام عبادة ، والنثر والنظم للذب عن أهل الاسلام من باب الحسنى وزيادة ، وجرحة الحاكم الاعراض بالاغراض صعبة ، اذ نص الحديث النبوي ان حرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة ، ومخرق خرقته مذموم ، ولحم العلماء مسموم ، « وهذه رسالة » أخلصت فيها النية ، وقصدت بها النصيحة للرعاة والرعية ، أودعتها من جوهر فكري كل ثمين ، وناديت بها على هزيل ظلم أبناء جنسي مناداة اللحم السمين ، لكن جنبتها فحش القول اذ لست من أهله ، وخلدتها في ديوان الدهر شاهدة على المسيء بفعله ، ورجوت بها الثواب ، نصرة للمظلوم ، وغيرة على حملة العلوم ، وسميتها : (الحرقة للخرقة) فقلت : اعلموا يا ولاة الامر ، ويا ذوي الكرم الغمر ، أبقاكم الله بمصر [1] للأمة ، ووفقكم لدفع الاصر وبراءة الذمة ، ان حلب قد نزعت للزبدة ، ووقعت من ولاية التاجر الرباحي في خسر وشدة ، فاض سكاب الهجوع ، وسكب الدموع . واخاف السرب ، وكدر الشرب ، بجراءته التي طمت وطمت ، وعاميته التي عمت وغمت . وفتنته التي بلغت الفراقد ، وأسهرت ألف

(١) كانت مصر في عهد المؤلف وهو القرن الثامن عاصمة دولة المماليك

راقد ، ووقاحته التي أدهشت الالباب ، وأخافت النطف في الاصلاب ، فكم لطخ من زاهد ، وكم أسقط من شاهد ، وكم رعب بريا ، وكم قرب جريا ، وكم سعى في تكفير سليم ، وكم عاقب بعذاب أليم ، وكم قلب ذائب ، بنائبة توسط بها عند النائب ، فامتنعت الامراء عن الشفاعة ، وظنوا هم والنائب ان هذا امتثال لأمر الشرع وطاعة ،

يا حامل النائب في حكمه ان يقتل النفس التي حرمت
غششته والله في دينه بشراك بالنار التي أضرمت

(الى ان قال الزين ابن الوردي) ثم انه فسق مفتيا في الدين ، وفضح خطيبا على رؤوس المسلمين ، (ثم قال) يجب اثبات الردة والكفر ، كحب الدنانير الصفر ،

حاكم يصدر منه خلف كل الناس حفر
يتمنى كفر شخص والرضا بالكفر كفر

(ثم قال) اذا وقع عنده عالم فقد وقع بين مخالب الاسود ، وأنياب الافاعي السود :

ادركوا العلم وصونوا أهله من جهول حاد عن تبجيله
انما يعرف قدر العلم من سهرت عيناه في تحصيله

(ثم قال) ما أقدره على التفسير ، وما أسهل عليه التفسيق والتكفير ، كم دعى الى بابلة فما ارتاح الى الباب ، وتراه حيران لعدم الرقة فاذا قيل له فلان قد كفر طاب ، يحبس على الردة بمجرد الدعوى ، ويقوي شوكته على أهل التقوى ، قد ذلل الفقهاء والاخيار ، وجرأ عليهم السفهاء والاغيار ،

يحبس في الردة من شاء بغير شاهد

لا كان من قاض حكى الـ فقاع جدّ بادر

أراح الله من تعرضه ، وصان عراض الاعراض عن تعرضه ، يقصد بذلك أهل الدين ، والقراء المجودين ،

جرحت الانبياء فأنت قاض على الاعراض بالاغراض جاري

ألم تعلم بأن الله عدل « ويعلم ماجرحتم بالنهار »

هذا بعض ماجاء في رسالة الامام ابن الوردي التي هي أشبه بمقامة بديعية ، وكلها حقائق صادقة ناطقة بما كان عليه تعصب قضاة ذلك الوقت ولا سيما المالكية منهم . ولقد كان قضاة المذاهب يحيلون الامر في التعزير والتأديب الى القاضي المالكي لما اشتهر في الفقه المالكي من مضاعفة النكال ، وشدة التأديب في باب التعزير ، اذ بسط القاضي يده فيه بسطا لم يوجد في مذهب غيره ، فلذا كان محبو الانتقام والتشفي ، يعمدون الى احالة القضية الى القاضي المالكي لما يعلمون ماوراء قضائه ـ مما فصل بعضه الامام ابن الوردي كما قرأت ـ على ان الامر في التعصب لم يقف عند القاضي المالكي وحده ، لتعصب ضده ، وانما كان هو الاقوى تعصبا والاشد تصلبا ، والا فان مظهر ذلك العصر كان التعصب لجميعهم ، فقد حكى الشيخ الشعراني رحمه الله تعالى في مقدمة طبقاته الكبرى المسماة بلواقح الانوار مامثاله : «وقد أخبرني شيخنا الشيخ أمين الدين امام جامع التمري بمصر المحروسة ان شخصا وقع في عبارة موهمة للتكفير ، فأفتى علماء مصر بتكفيره ، فلما أرادوا قتله قال السلطان جقمق : هل بقي أحد من العلماء لم يحضر ، فقالوا نعم الشيخ جلال الدين المحلي شارح المنهاج ، فأرسل وراءه فحضر ، فوجد الرجل في الحديد بين يدي السلطان ، فقال

الشيخ : مالهذا ، قالوا : كفر ، فقال : ما مستند من أفتى تكفيره ، فبادر الشيخ صالح البلقيني من مشاهير الشافعية — وقال قد أفتى والدي شيخ الاسلام الشيخ سراج الدين في مثل ذلك بالتكفير ، فقال الشيخ جلال الدين رضي الله عنه : ياولدي أتريد أن تقتل رجلا مسلما موحداً يحب الله ورسوله بفتوى أبيك ؟ حلوا عنه الحديد ، فجردوه وأخذه الشيخ جلال الدين بيده وخرج والسلطان ينظر ، فما تجرأ أحد يتبعه رضي الله تعالى عنه

وقد عد الشعراني من الاعلام الذين أكفرهم الجامدون المتعصبون ما يقرب من الثلاثين (فمنهم) القاضي عياض اتهموه بأنه يهودي لملازمته بيته للتأليف نهار السبت وذكر ان المهدي قتله (ومنهم) الامام الغزالي كفره قضاة المغرب ، وأحرقوا كتبه ، (ومنهم) التاج السبكي رموه بالكفر مراراً وسجن أربعة أشهر [1] ، وكل هذا انما كان بزعم المتعصبين بشهادات وأقضية وفتاوي ، ولكن سرعان مافضحهم التاريخ ، وكشف عوارهم كما حكاه الشعراني وغيره ، والحمد لله الذي جعل الباطل زهوقا

وهكذا يمر بتواريخ تلك القرون ما لايحصى من حوادث من أقيمت عليهم الفتن ، واتهموا بما اتهموا به ، مع ان الحدود تدرأ بالشبهات ، ونعني بالحدود مانص عليه في الكتاب العزيز والسنة الغراء ، فاذا كانت في تلك المكانة وقد شرع فيها محاولة درءها بالشبهات ، فكيف بحدود لاسند لها الا بالاجتهاد ، وليس لها أصل قاطع ، ولا نص محكم ، فلا ريب انها أولى بالدرء ، وأجدر بالدفع ، ولا يدري المرء ما الذي حملهم على نسيان هذه الموعظة حتى عكسوا القضية ، وأصبحوا يكبرون الصغير ،

(١) ذكر السبكي محنته هذه في آخر منظومة له في الفقه ، عندي الكراسة الاخيرة منها

ويعظمون الحقير ، ويهولون الامور ، ويدعون بالويل والثبور ، مما لا يقومون بشره للمنكرات المجمع عليها ، والكبائر التي يجاهر بها ، فلا حول ولا قوة الا بالله

ولما تشددت القضاة المالكية في هذا الباب ، اصبحوا هدفا لأولي الالباب ، حتى قال الامام ابن الوردي في ذلك القاضي المتقدم الرباحي : ان المالكية بدمشق كتبوا اليه يامغلوب ، لقد بغضت مذهب مالك الى القلوب ، وقطعت المذاهب الاربعة عليه بالخطا ، وزالت بهجته عند الناس وانكشف الغطا ، الخ . والسبب في ذلك ما ابتدعه الملك الظاهر برقوق من توظيف قضاة أربعة على المذاهب الاربعة مما لم يعهد قبله في دولة من الدول ، حتى نشأ من ذلك مانقمه عليه الأعلام ، وعدوه من التفرقة في الاسلام ، قال التاج السبكي في طبقاته [1] في ترجمة قاضي القضاة بالديار المصرية تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الاعز الشافعي المتوفى سنة ٧٦٦ه ما مثاله : وفي أيامه جدد الملك الظاهر القضاة الثلاثة في القاهرة ، ثم تبعتها دمشق وكان الامر متعينا للشافعية فلا يعرف ان غيرهم حكم في الديار المصرية منذ وليها أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي في سنة ٢٨٤ الى زمان الظاهر إلا أن يكون نائب يستنيبه بعض قضاة الشافعية في جزئية خاصة ، وكذا دمشق لم يلها بعد أبي زرعة المشار اليه الا شافعي غير الثلاثة عوفي الترکي ، الذي وليها يومين وأراد أن يجدد في جامع بني أمية اماما حنفيا ، فأغلق أهل دمشق الجامع وعزل القاضي [2] (قال السبكي) واستمر

(١) جزء (٥) صفحة (١٣٤) (٢) تأمل هذا التعجب واسترجع وحوقل أين غاب عنهم فضل سائر الأئمة المجتهدين الأربعة وغيرهم وكيف نسوا ان الناس عيال عليهم تستمد من بركة فقههم واستنباطهم وتأصيلهم وتقريعهم ؟ ما أجد قولا =

جامع بني أمية في يد الشافعية — كما كان في زمن الشافعي رضي الله عنه (قال) ولم يكن يلي قضاء الشام والخطابة والامامة بجامع بني أمية الا من يكون على مذهب الاوزاعي الى ان انتشر مذهب الشافعي ، فصار لا يلي ذلك الا الشافعية (ثم قال السبكي) وقد حكي ان الملك الظاهر رؤي في النوم فقيل : مافعل الله بك ، قال عذبني عذابا شديداً بجعل القضاة أربعة ، وقال فرقت كلمة المسلمين » اه ولا يخفى على ذي بصيرة ماحصل من تفرق الكلمة ، وتعدد الامراء ، واضطراب الآراء ، وقد قال أبو شامة لما حكى ضم القضاة ، انه مايعتقد ان هذا وقع قط : قال السبكي : وصدق فلم يقم هذا في وقت من الاوقات ، (قال) وبه حصلت تعصبات المذاهب ، والفتن بين الفقهاء : فانه يؤيد ماقدمناه من اتخاذ هذه آلة للفتن والتشفي من المخالفين ، حتى أدال الله من تلك الدولة للسلطان سليم خان ، فنسخ كل ذلك ، وقصر الامر على قاض حنفي واحد ، ولا ريب ان هذا كان من النعم الكبيرة ، اذ قمعت به فتن خطيرة ، وحسمت به شرور وفيرة ، نعم لم يزل في الامر حاجة الى الكمال ، وهو سعي أولي الحل والعقد بعقد مؤتمر علمي من كبار فقهاء المذاهب المعروفة ، وتأليف مجلة تستمد من فقه سائر الأئمة الاربعة وغيرهم مما فيه رحمة ويسر ، ومشي مع المصالح والمنافع ، ودفع المضار في أبواب المعاملات ، فبذلك تظهر محاسن الدين في الاقضية والاحكام ، ويعرف أنه دين المدنية في كل زمان ومكان الى قيام الساعة وساعة القيام ، وان اليوم الذي تحقق فيه هذه الامنية لهو أسعد الايام ، والمستعان بالله ذي الجلال والاكرام اه

= يزعمون انهم تعبدوا بمذهب واحد أو اتباع امام واحد ، أو ما علموا ان كلهم من رسول الله ملتمس ، وان الله تعالى انما تعبد الناس بتنزيله الكريم ، وهدي نبيه المعصوم